التَّدَاوُلِيَّةُ-مُصطَلَحاً ومَفهُوماً-فِي الدِّراسات العربِيَّةِ المُعاصِرَة/ عَتَبَاتٌ أَوَّلِيَّةٌ

أ. يعرب جرادي - جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

ملخّص:

قُمنَا في هذا المقال؛ بتوضيح أهمّ المحطّات العربيّة المُقاربة للتّداوليّة؛ بوصفِها منهجًا أو تيّارًا بحثِيًّا جَدِيدًا على الدراسات اللّسانية العربية، وذلك بتَتَبُّع المُصطلح والمفهومِ الدّال علَيهما في أعمال الباحثين العرب الذين اشتَغلوا على هذا الموضوع، ابتداء بـ: طه عبد الرحمن الذي وضع المصطلح؛ ونظر له من النّاحية الفلسفية واللسانية والنقدية، ثم المُتوكل الذي اشتغل على جوانبه الوظيفية، ثم مسعود صحراوي الذي وقف على التّقارب الموجود بين أفعال الكلام والإنشاء، فمحمد يونس الذي درس مناهج الأصوليين؛ ونماذجهم التّخاطُبيّة المُقاربة للنّص، فعَبد الرحمن الحاج صالح الذي أعاد قراءة ما اشتغل عليه لِسَانيًا؛ هذه المرة في نظرية الوضع والاستعمال؛ بالتّركيز عَلى الخِطابوالتّخاطب، وُصولا إلى العُمري الذي التقى مع التداولية عندما عمل على قراءة البلاغة العربية من منظور البلاغة الجديدة، ختاما برشيد يحياوي الذي عمل على بلاغةٍ جديدةٍ للكلام لا اللغة؛ بإعمال نظرية التواصل، وقد قدمنا ذلك بتحرير أهم النقاط التي اجتمعوا عليها، وتلك التي افترقوا فيها.

Abstract :

We have clarified in this article, the most important events ;of the Arab approach to Pragmatics; as a method or a new research stream in Arabic linguistics studies, and it keeps track of the term and the concept signifier them in the work of Arab researchers who worked on this subject, starting with: Taha Abdel-Rahman, who put the term; considered him from the philosophical and linguistic and critic, then El Moutawakel, who worked on the functional aspects, then a Massoud Sahrawi, who studied on the convergence that exists between the acts of speech and Elenchaa, to Mohammad M Younis, who has studied methods of Fundamentalists; and their Pragmatics models approach; to the text, Abdel-Rahman al-Haj Saleh, who re-read what worked him in linguistic; this time in the situation and use theory; focusing on speech and pragmatics, all the way to Alomary, who met with the pragmatics when he worked on reading Arabic rhetoric from the perspective of the new rhetoric, Finally Racheed Yahyaoui, who worked on a new rhetoric for parole; not for language;by the realization of communication theory, finally we clear up the most important points; that met them, and those that separated them.

1.مفتتح:

شَهدَ البَحْثُ اللِّساني تطورا هامًا في أخَيْرَاتِ القرن العشرين، وبدايات القرن الحاليِّ، إذ ذهب عن المدارس البنيويّة ذلك الزَّهْوُ الذي اتّسمت به، خاصّة أنّها أفْنَت جَهدها المنهجيّ في المستوى الصوتي، وصنعت الأمر عينه في المستوى التركيبيّ، مع عطاءات النظرية التوليدية التّحويلية لِنَعُوم تشُومسكي، الذي وُجِّهَت لَهُ اِنتقادات كبيرة أَظْهَرَت وُقُوفَ نَظِريَّتِهِ عِنْدَ الحَدِّ العَلَائِقِيِّ؛ وعَجزها عن مُقَارَبة الدِّلالة، لا من جهة اِسْتِحْضَار السِّيَاق وإعماله للوصول للدّلالة التركيبيّة، أو اِستحضار القرائن الخارجيَّة عن اللغة للوصول للمعنى المُرَاد فِعلا منَ المُتَكلِّم.

وهو ما أدَّى للعودة إلى بعض التَّوَجُّهَاتِ البَحْثِيَّة في الدَّرْس اللِّسَانِيِّ الأنجلُوسَاكْسُونيِّ، والذي يُرَكِّزُ عَلَى البُعْدِ عَن التَّجْرِيدِ أَوْ قلِّ الإغْرَاقِ في التَّجريد؛ بالالتفات إلى صميم الفائدة اللّغوية، التي هي الهدفُ الأوَّلُ وَالأَصْلِيُّ من التَّواصل اللِّسانيِّ، وفعلا كانت العودةُ لِأعْمَال (تشارلز موريس) الذي نظر في بُعدٍ جديدٍ لِتَحْلِيلِ العلامة اللُّغويَّة؛ هُوَ البُعْدُ التَّدَاوُلِيُّ، ما أضْفَى نَفَسًا جديدًا للبحثِ اللِّسانيِّ أخْرَجَهُ عن رَتَابَتِهِ التِي عُهِدَت عَنْهُ.

أضِف إلَيْهِ عَامِلًا آخَرَ لا يُمكِننَا تَجَاهُلُهُ؛ وهو الأصولُ الفكريَّة التي وَسَمَت القرنَ (الواحد والعشرين)؛ إذ كانت بِدَايَاتُه تُنْبئُ عَنْ وِجْهَةٍ جديدةٍ يَميلُ إليْها العالمُ المعاصر، وهو الاتِّجاهُ التَّواصُلِيُّ الذي يَنْزِعُ إلى الحِوَاريَّة، وعدمُ الاطمئنان إلى المَعنى الظَّاهِرِ؛ أو عدم التَّسليم له.[1]

نريد في هذا المقال- الذي ما هو إلا عَتَبَاتٌ أَوَّلِيَّةٌ للموضوع- متابعة مصطلح "البراجماتيك" عند الدارسين العرب، وكيفيَّة اشتغالهم على المضامين التي تندرج تحته، وغرضُنا في ذلك إيضاح العلاقة بين ترجماتهم للمصطلح-وقد كانت متنوعة-والمفاهيم المختلفة التي ربطوها بتلك الترجمات، إذ لم يكن اختلافهم هذا سببه- في تصورنا- مجرَّدَ حِرصٍ على التَّميُّز الأكاديمي؛ بقدر ما كان سبَبُه اختلافَ منطلقاتهم؛ في التّعامُل مع "البراجماتيك"- وهو ما افترضناه واشتغلنا عليه- بوصفها تَيَّارًا بحثيا معاصرا؛ مثله مثل البنيَويَّة أو فقه اللغة المقارن، إذ لم يستقرَّ التّعامل معها بوصفها علمًا، ولذلك تتحدث المراجع الأجنبية عن(courant pragmatique) بدلَ الحديث عن علمٍ ما؛ كما لم يتحدثوا قبل ذلك عن علم البنيوية أو علم اللغة المقارن، وهو ما يذكره اللسانيون المعاصرون عند حديثهم عن "البراغماتيك"(La pragmatique):

«البراغماتية: تخصص معرفي يَتَمَثَّلُ اللغة بوصفها أداة تغيير فِعْلِيٍّ؛ لا أداة تعبير عن أفكارٍ ونقلٍ للمعلومات فحسبُ...وقد تطوَّرَ التيار البراغماتي (courant pragmatique) في اتجاهين (deux directions) هما: اتجاهُ التَّحليل الحِجاجِيِّ، واتجاهُ الافتراض المُسبَق والمُضمَرات الخِطابية التي تسمح بإعادة بناء المعنى.[2]

إنَّ استقراء الدراسات العربية المعاصرة في هذا المجال، جعلنا نَقِفُ على مجهودات بُذلت للبحث في أصول للبراغماتيك في الدرس العربي القديم، أو الاكتفاء بنقل مفاهيمه للباحث العربي، أو البحث عن بديلٍ نظريٍّ له يُمكِنُ الاستفادةُ منه لخدمة اللسانيات العربية.

وقبل ذلك دَعَتِ الحَاجَةُ إلى إدْمَاج المُصطلح في المُدَوَّنَةِ الأَكَادِيمِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، حتَّى يَتَسَنَّى التَّعَامُل معَه؛ ترجمةً وبحثًا، نقدًا وَإِضَافَةً. وهو ما أظهر اختلافات الاتجاهات العربية في التعامل مع هذا التخصص المعرفي، إذ يُجَسِّدُ التَّعامُلُ مع المصطلح الغربي، الموقفَ الذي اتخذه اللِّسانيون العرب مع كل وافد جديد، والذي هو هنا "البراغماتيك"، فحين نتحدَّثُ عنها بوصفها مصطلحا غربيا؛ ننقله بذلك كما هو في الدرس الغربي من جهة المصطلح والتعريف، وحينما نتحدث عن البراغماتيك بوصفها مفهوما عربيا؛ فإننا نُبَيِّن الاتجاهات العربية المختلفة في التعامل مع هذا التَّخَصُّص الجديد، لأن اختلافهم في الاصطلاح عليه ستُظهر -من دون شكٍّ- مواقفَهم المعرفيَّةَ، فالذي يُسمِّيهِ بتسميةٍ عربية لها أصولٌ في العلوم الإسلامية التراثية؛ إنما يُريد من ذلك استبدالَ الخلفية النظرية الغربية بخلفيةٍ نظريةٍ عربيَّة خالصة، والذي يسميه بتسمية أعجمية يُعرِّبها صوتا لا دلالةً؛ إنما يريد من ذلك التأكيدَ على التأصيل له انطلاقا من جُذوره التي نبتت فيها ألا وهي منابته الغربية الخالصة.

وعليه نفترض أن يكون اختلاف المصطلح -المقابل لـ: "براغماتيك"-سببه: إما نقله إلى العربية ترجمة أو تعريبا، أو إعادة صياغة للمصطلح بما يندرج ضمن توجهات جديدة؛ تطرأ على هذا الميدان، أو يتعلق الأمر بالاصطلاح بما يتوافق وأصول اللسانيات العربية.

ولما كان الأمر كذلك تَتَبَّعنا المقابلات العربية لمصطلح "براغماتيك"، وما يندرج تحتها من مفاهيم؛ حتى يتسنى لنا ضبطُ الروابط العضوية؛ بين المصطلحات التي تندرج تحت مسمى "البراغماتيك".

ولا بأس من التّذكير هنا بدلالة التعريف كما يراه ساكر(J SAGER) إذ يقول:

« التعريفُ وصفٌ لغويٌّ للمفهوم قوامُه ذِكرُ عددٍ من الخصائص التي توصل مَعنى المفهوم.»[3]

فتَتَبُّعُ خصائص المصطلح الذي يدلُّ عليه لفظ "براغماتيك" لدى المتَخَصِّصِين؛ سَيُقَدِّمُ تعريفا مفهوميا لها، ومن الحاجات الأساسية التي يلبيها التعريف تثبيت الرابط بين المصطلح والمفهوم،[4] وهي عملية متنامية ينبغي تقبلها، خاصة وأننا نتعامل مع مفاهيم متسارعة التكون والتطور في عالم اللسانيات الذي نعيشه، ما يدعونا للتحقق أولا من ماصدَقِيّة التعريف لتَثْبيتِ المعنى الخاصّ بالمُصطلح[5] لأجل تحديد الإحالة الدقيقة له، ثم النّظر بعد ذلك في جدوى البحث، أو غاياته، أو التنقيب عن مجالاته التّراثية؛ التي تُمَكِّنُنا من إعادة رَبطه بأصول الدّرس العربيّ.

1. "البراغماتيك" مصطلحا غربيًّا:

لا بأس أن ننطلق من البراغماتيك التي تُعَرَّفُ عادةً بقولهم:

«دراسة المعنى الذي يقصده المُتَكَلِّمُ، أو المَعنى السِّيَاقِيُّ، أوْ كَيْفِيَّةُ إيصَال أكْثَرَ مِمَّا يُقَالُ.»[6]

وهو تعريفٌ جامعٌ؛ نَحَتْنَاه من تعريفات تعليميّة ثلاثة؛ تُقدَّم للطلبة في الجامعات الأنجلوساكسونية، وإن كان الدارسون العرب قد اعتمدوا في صياغتهم للتعريف؛ على الدراسات الأصليّة التي أَسَّسَت للبراغماتيك في الغرب، وانطلاقًا مِن هذه العَتَبَة التَّعْرِيفِيَّة نَنْظُرُ في تَفاعل اللِّسَانِيَّاتِ العَرَبِيَّة مع هذا التيار البَحْثِيِّ الجَديدِ، بالوُقوفِ عَلَى أَهَمِّ أعمال اللِّسانِيِّينَ العَرَبِ في هذا المَيْدَان.

2. البراغماتيك مفهوما عربيًّا:

يُوصِلنا اِستقرَاء مفهوم التَّدَاوليَّة في الدِّرَاسَاتِ العَرَبِيَّة المُعَاصِرة، أنَّها خَلُصَت إلى وجهَتَي نَظَرٍ اِسْتَحوَذَتَا عَلَى البُحوث الأكَادِيميّة العربية على مدى السنوات العشرين الماضية، وأخرى ثالثة لا تزال في طور تشَكُّلها:

<u>1/الاتجاه الأول:</u> الذين نَقَلوا المُصطلَح الغَربيَّ من "البراغماتيك" أو "البراجماتيك" (pragmatique) إلى مُصطلَح عربيٍّ جديدٍ هو "التَّداوليَّة":

وذلك بالعودة للمادَّة اللُّغوية العربيَّة (د، و، ل) التي تعني: التَّواصل والتَّفاعل، وهما المعنَيَان اللّذان تدور حولهما مفاهيم التداولية.[7]

أمّا من جهة المفهوم فيَعنُونَ به «العلمَ الذِي يَبحَثُ فِي اللُّغة من جِهة الاستِعمال والتَّخاطُب.»[8]

فهي بهذا المعنى نظرية استعماليّة -من جهة-؛ إذ تَدرُسُ اللُّغةَ فِي اِستعمال النَّاطقينَ بهَا، ونظرية تخاطُبيَّة -من جهة أخرى-؛ إذ تُعالِجُ شُروطَ التَّبْليغ والتَّواصل الذي يَقصِدُ إليهِ النَّاطقون من وراءِ هذا الاستعمال للُّغة.[9]

هذا التفسيرُ المفهوميُّ- الذي قدَّمه طه عبد الرحمن- للبراغماتيك يَمنَحُنَا من النَّاحِيَة الإجْرَائِيَّة قُدرةً على تَحليلِ النُّصوص اللُّغوية من خلال مَنْحَيَيْن أحدُهُمَا اِستعماليٌّ والآخرُ تَخاطُبيٌّ؛ يَبحثُ الأوَّلُ في الجوانبِ الاِستِعمَالِيَّة في النّص، التي اِستَقَرَّت من خِلال المُمَارسات اللُّغوية التِي تَرَسَّخَت في البيئاتِ اللُّغوية المُختَلِفة، والآخر يبحث في تلك الجوانب التَّوَاصُلِيَّة التي يُنشِئُهَا المُتَخاطِبون عِند ظُهور ظُروفٍ جديدةٍ للتَّواصُل، أم أنَّها ظُروفٌ اِسْتَحضَرُوها حين قَصَدوا إلَى أغراضٍ مُعيَّنة.

فتَكُونُ الاستعماليّة والتَّخاطبيّة داخلةً في مَفهومِ التَّداوُليَّة -من وجهة نَظَر طه عبد الرحمن-من النَّاحِيَة الاِصطِلاحيَّة، ما جعلَهُ يقول بكون المنهج التداوليّ مُنَاسِبًا للبَحثِ فِي المَيدان الأدَبيِّ، وَهُو ما يُخَالِفُه فِيه غيرُه من اللِّسَانِيِّين العَرَب.[10]

كانت المفاهيم التداولية مُحرِّكةً للبحث في النحو العربي من منظور مغاير؛ في إطار "النحو الوظيفي" الذي اِقترحه سيمون ديك، والذي كان في فترة الثَّمانينات حديثَ عَهدٍ بالظُّهور، فهُو في تَصوُّر أحمد المتوكّل أكثرُ نَظريَّةٍ وَظِيفيَّةٍ تداوليةٍ اِستجابةً لشروط التَّنظِير، ولمُقتَضَياتِ "النَّمذَجة" للظَّواهر اللُّغويَّة.

وقد كان التركيز على ظروف الاستعمال في اللغات الطبيعية في إطار وظيفتها الأساسية التي هي وظيفة التواصل.[11]

لم يَشَأ المُتوكل آنذاك المساسَ بالمبادئ المنهجيّة للنّحو الوظيفيّ، لكنَّهُ قدَّم مُقترحاتٍ للنَّحو والبَلاغة العَرَبِيَّين؛ وهي مُقابلةٌ فِيهَا مِن هَضْمِ حقِّ هذين العِلْمَين ما فِيها؛ إذ يَعسُر مُقابلةُ نَمذَجَة اللُّغات الطَّبيعيَّة التي قدَّمها "ديك" براديغمًا؛ لِتَقديمِ مُقتَرحاتٍ تَمَسُّ نماذج قدمهما عِلمان عَريقان من علوم اللِّسان العربيِّ هُما النَّحو وعلم المعاني، على أنّه - لمن حيث المبدأ النَّظري- ممكن؛ غيرَ أنَّ الإجراء الذي تابعه المتوكل يُوحي بإسقاطِ مَفاهيمِ الوَظِيفيَّة على النَّحو العَربيِّ، أو أُريد قولَبةُ النَّحو العَربيِّ بالوظيفيَّة، لِإضفاءِ شيءٍ منَ الجِدَّة لا التَّجدِيد.[12]

أمّا التَّداوليَّة ضمنَ هذا المُقتَرَح فهي تداوليَّتان:

1. <u>تداوليَّةٌ وَظيفيَّةٌ بَحتة</u>: هي نِتَاج النَّحو الوَظِيفيِّ لسيمون ديك.

2. وأخرى مُعَرَّبَةٌ: مُقتَرضةٌ مِن علوم اللّسان العَربيّ نحوًا وبلاغةً وفقهَ لُغةٍ وأُصولَ فقهٍ؛ بما يَخدم النّحوَ الوَظيفيَّ دائما -وبما يَقترحُه هذا النّحو أيضا باستِقرَاء المُتوَكِّل – علَى العُلوم اللّسانيّة العَربيّة، ثُمَّ أعاد تَرتِيبَهَا ضِمنَ نَظريَّة النَّحو الوَّظِيفيِّ.

فالمَفاهيمُ التَّداوليَّةُ التِي كانت ضِمنَ مُصطلَحِه اِستِثمَارٌ أوروبيٌّ – ضِمن تَطوُّرَاتٍ اللِّسانيَّات البنيَويّة-للنَّظَريَّة اللُّغوية الأمريكيَّة التي تَمثّلت في نظريَّة أفعال الكلام، في إطار دِراساته لأعمال سيمُون دِيك، ولم يكُن ذلك اِنطلاقًا من نظرية أفعال الكلام مُباشرة.

وقد اِقتَرض لِأجل ذلك من الفِكر اللُّغويّ العربيّ القديم-على حدّ تَعبيره-نَحوه وبَلاغتِه؛ بإدرَاجِه في الفِكر اللِّسانيّ الحَديث واستِثماره فِي وصف اللُّغات الطَّبيعيَّة بمَا فيها اللُّغةُ العَربيَّةُ. كما رأى أنَّ التَّداوليّة نظريةٌ ثَوَتْ خلفَ مُختلَف العُلوم اللُّغوية (النّحو، واللّغة، والبلاغة، وفقه اللّغة) قابلةٌ للتَّبادُل قَرضًا واقتِراضًا.[13]

انطلاقا من الجانب الاستعمالي يُمَايزُ مسعود صحراوي بين التداولية بوصفها "علمَ الاِستِعمَال اللُّغوي"[14] كمَا ذَهَبَت إليه أوريكيوني[15] واللسانيات؛ إذ تَزيد التداولية بالبحث في تَعالُق البنية اللُّغويَّة بمجَال اِستِعمَالِها.[16]

وموضوعها الأساس " التَّواصلُ اللّغوي وتفسيرُه" من خلال البحث عن:

1. القَوانِين الكُلِّيَة للاستِعمال اللُّغويِّ.
2. القُدُرَات الإنسانيَة للتَّواصُل اللُّغَويِّ.[17]

كانت مُقَارَبةُ صحراوي المفاهِيميَّةُ للتَّداوليَّة-مقتصرة على نظرية أفعال الكلام فحسب-بالعودة إلى مفهومَي الخبر والإنشاء؛ فقَدَّمَ لأجلِ ذلك نَماذِجَ تَمثِيليَّة لمُقَارَبَتِها من النَّاحيَة الإجرَائيَّة بمَا يَمنحُ للبَاحِثِ في هذا المَجَال أرضِيَّةَ عملٍ يَنطلِق مِنهَا.[18]

كما اِعتدَّ صحراوي بالمرجع التُّراثِيِّ -ومَا يُحيلُ إليهِ-مِن عُلومٍ تُقَاربُ المَعْنَى غيرَ الحَرْفِيّ؛ مِعيارًا في تَقدِيم مَفهُومٍ عربيٍّ لمُصطلَح التّداولية، فاستَحضَرَ علوم البلاغة خاصّةً مِنها علمَ المعاني، وأصول الفقه وأصول التَّفسير؛ التي قدَّمت أبعادًا جَدِيدَة وأدواتٍ إجرَائِيَّةً أصِيلَةً تُمَكِّن البَاحِثَ في التَّداولية عامّة، وفي اللّسانيات خاصَّةً؛ مِن مُقَارَبة الدَّلِيل اللُّغويّ والتَّعامُل معه من حيث كونه تَواصُلِيًّا بالأساس لا نظاما مُجرَّدا.

يُعتبر هذا الاتجاه مُؤَسِّسًا للمصطلح؛ وما تَضمَّنَهُ من مفاهيم في اللسانيات العربية، فلم يحفل بتعريبه أو البحث عن مقابل عربيٍّ له؛ فيُركِّز على وظيفة هذا المنهج لا على دلالات المصطلح فحسب، وهو ما قام به أصحاب الاتجاه الثاني.

2/الاتجاه الثاني: الذين غيَّرُوا المُصطلح إلى "عِلمِ التَّخَاطُبِ":

وقد اتَّكَأُوا علَى التُّراثِ الأصُولِيِّ وكَذا البَلاغِيِّ والنَّحويِّ، وهَؤُلاءِ يَحتَفُون بـالخِطَابِ والاستِعمَال-كمَا فَعلَ الأصُولِيُّونَ والبلاغِيُّونَ من قبلُ-ويَجعلُونَه مُقابلا للوضع، ويُحاولون -مع ذلك-اِستِحضَارَ التَّدَاوُليَّة المُعاصِرة فِي التَّأسِيس لهَذا المُصطَلَح، بالمَزج بين أصول الفقه والتَّداولية.

يرى محمد يونس أن علم التخاطب يتراوح بين الدارسين الأصولي منهم واللساني، غايتهُ «حُصولُ التَّفاهُم بين المُتَخاطِبين، وتَشمُل مَسائلُه كلَّ العَناصر التي تُساهم في إحداث التَّخاطب، من وضع واستعمال وقرائنَ [...]، وكل النَّظريات الدَّلاليَّة ذات الصِّلة بالاستعمال والسِّياق.»[19]

وضمن هذا الاتجاه أيضا قام عبد الرحمن الحاج صالح بدراسةٍ مُقَارنةٍ في اِستِقرَاءٍ مُتَأنٍّ وَدقيقٍ، نَقَدَ فيهَا منهَج البراغماتيك[20]، وانتَصر لِمنَاهِج البَحثِ الإسلَامِيَّة، إذ تَتَبَّع هذه الثُّنَائِيَّة مِن سيبويه إلى غاية من جاء بعده من النُّحاة والمُفَسِّرين والبَلاغيِّين والأصولِيِّين.

ليتثبت أنَّ ثُنَائِيَّة (وضع /استِعمال) اِستَأثر بهَا النُّحاة دُونَ غَيرهم، وإن كان الأصُولِيُّون قد اِستَخدَموا مُصطلح الخِطاب بدل الاستعمال.

وهو يرى أنَّه لا توجد كلمةٌ عربيةٌ تُؤدي معنى براجما بالتَّمام إلا الاستعمال كما يُقابل الوضعُ الخِطابَ عند الأصوليِّينَ.[21]

أما بالنِّسبة للعُمريِّ فالتَّداوليَّة بلاغةٌ جديدةٌ يُرَكِّزُ فِيهَا الدَّارِسُونَ علَى الجَانب التَّأثِيري في المخاطَب (المُتَلَقِّي)؛ بإعدادِ كلِّ مَا مِن شَأنِه تَحقيقُ نَجاعة الخِطاب لدى المخاطِب (المُرسِل)؛ فيَكونُ هذا الفنُّ الجديدُ ذا صِلةٍ أكيدةٍ بالبَلاغَة، بل مُجدِّدًا لهَا مُراعِيًا لِجوانِبها الإنشَائِيَّة.

كما يَنطلِق في إدرَاجِه لِلتَّدَاوليَّة في الدِّراسات العربيَّة المُعاصِرة؛ من اِستِحضَار البُعد التَّواصُلِيِّ أو الحِواريِّ للنُّصوص، عندما ينتَسِب "نصٌّ" ما إلى "مقام"، فيَستحضِرُ الخِطابَ الذِي أنتَجه تَفاعُلٌ بين مُتَخاطِبَين حَقِيقِيَّين أو اِفتِرَاضِيَّين بدرجاتٍ مُتَفاوتة.[22]

لكل ذلك يقول:

«البلاغةُ هي علمُ الخِطاب المُؤثِّر القائم على الاحتمال.»[23] وهي – بعبارة أكثرَ إسهَابا-: «علم يهدف للتَّأثير والإقناع أو هما معًا إيهامًا أو تَصديقًا.»[24]

فالبلاغة إذن قائمة على ركنين: أحدُهما تَخييليٌّ يعتمد على افتراض احتمالات تَوهيميَّةٌ، والثاني تداولي قائم على افتراض احتمالات تَرجيحيَّة.[25]

يَظهَرُ مِن أعمال العمري؛ عدمُ اِعتِدَاده بالتَّداوُلِيَّة مصطلحًا، وإن كان شارك في إثرائها مَفهُوما، إذ مَركَزَ اِهتِماماته البَحثِيَّة على مُصطلَح البَلاغَة، وهو العلمِ الذِي يَنبَغِي إثرَاؤُه وتَوسِيعُه أو إعادة بنائه حتى يصيرَ طَيِّعًا لِمُتَطلَّباتِ الدَّرس المُعَاصِر، فلَعلَّه تَأثَّر فِي ذَلك بالمدرسة التِي تُنَادِي بأسبَقِيَّة مفهوم البلاغة الجديدة.

يلتقي هذا التَّيَّار مع التَّيَّار الأوَّل في المُحافظَة على المَفهُوم وإن تَغَيَّر الاِصطِلاحُ؛ فعلمُ التَّخاطُب عندهم أيضا علم الاستعمال اللّغوي، وقد كان سَببُ تَغييرهم المُصطلح اِستِنادُهم على الإجراءات الأصولية في مقاربة النص والخطاب واعتِدادُهم بالتُّراث الإسلَامِيِّ.

كما أنهما ينطلقان من المنهج اللغوي للتداولية في صياغة المصطلح، على الرغم من العودة للتراث الإسلامي نحوه وأصوله وبلاغته وتفسيره؛ للاستعانة به في المصطلحات الإجرائية، وهو ما يتفاداه الاتجاه الثالث الذي يتجه مباشرة للبلاغة العربية ليقتبس منها مصطلحا جديدا باعتبارها علما يحتل موقعا هاما في ثقافتنا العلمية ومخيالنا الحضاري.

3/الاتجاه الثالث: هو ما نزع إليه رشيد يَحيَاوي «التَّبَالُغ والتَّبَالُغِيَّة»:

إذ أَسَّسَ لِعلمٍ مُستَقِلٍّ لَا هُو البَلاغَة ولا التَّداولِيَّة، لكنه بَلاغةُ الكلام أو بلاغةٌ للكلامِ لا اللُّغة، تَستَنِدُ على فِكرةِ التَّواصُل التِي هي الوظيفة الأساسية للُغة-من وجهَة نَظَرِهم-، لكنَّها ليست التَّداوُلِيّة، وهو رأيٌ فيه من الجُرأة والجَهدِ قدرٌ بالِغٌ؛ وَظَّف لِأجله عددًا وافرًا من المُصطلَحات التُّراثِيَّة التِي عَالَجت الكَلَامَ.

وقد اِنطلق من دعوى مَركزِيَّة مَفادُها أنَّ «الكلام فِعلٌ تَبَالُغِيٌّ»[26]، اِنطلاقا من كون الوظيفة المركزِيَّة للكلامِ هي الوظيفة التَّواصُلِيَّة[27]، وأنَّها هي التِي جعلت لَه دورًا مُتزَايدًا في عصرنا المَعيش، فالكلامُ-بالنِّسبَة له-، مَوضُوعٌ ووسيلةٌ وغاية[28]

لم يلتفِت رشد يحياوي إلى التَّداولية المعاصرة؛ من حيثُ كونُها جهازا مَفاهِيميًّا ومنظومةً اصطلاحيَّة، وإن كانت حاضرةً في دراساته حُضورا حِجَاجِيًّا، إذ اِنطلق من التُّراث العربيِّ الإسلاميِّ في جوانبه التي دَرَسَت الكَلامَ، ثم أَسَّسَ-بالنَّظر فيه-من جديد علمًا "جديدًا" هو "علم التَّبَالُغ" اِنطلاقا من إعمال نظريّة التواصل المعاصرة.

والتَّبالغية -بمعنى علم التَّبالغ-في تَصَوُّر رشيد يحياوي علمٌ معاصرٌ يَختلف تماما عن التَّداولية، وإن لم يَكُن قد ذَكَر ذلك صراحةً، وأعلنَه على مُؤَلِّفِه إلَّا أنَّ دِرَاسَتَه "التَّبَالغ والتبالغية" تَنضَحُ بذلك.

فالتَّداولية والتَّبالغ يلتقيان من حيثُ يَفترقان؛ إذ يَنطَلِقُ كِلاهُما من نظرية التَّواصل، ويفترقان في خلفيَّاتِهما المعرفيَّة وأُطرهما المفاهيميَّة، وبالتَّالي فِي جِهازَيهما المَفاهيمي الذي أَسَّسَ لِكُلٍّ منهما.

كما أن تقديمه لهذا العلم يوحي بأن إطاره الزمني والنظري ينحصر بين طرفي الاتصال، فالكلام ظاهرة ثنائية بهذا الاعتبار أو قل فردية تُحَرِّكها الحِوارية بين الطرفين.

هذا الاتجاه يَحتاجُ لمزيدِ البحثِ والدِّراسَةِ والتَّعَمُّق حتى تُختَبَر كُمُونَاتُه التَّطبيقِيَّةُ، وإن كان قد استدعى زخما من المصطلحات التراثية بما تكتنزه من دلالات مفاهيمية وأدوات إجرائية.

3. مختتم:

يمكننا في الختام حوصلة الاتجاهات الثلاث التي نقلت مصطلح البراغماتيك إلى اللسانيات العربية، وهي كالآتي:

1. **التداولية:** كما ذهب إليه كل من: طه عبد الرحمن، والمتوكل، ومسعود صحراوي، والعمري.
2. **علم التخاطب:** كما ذهب إليه محمد يونس وعبد الرحمن الحاج صالح.
3. **التبالغية:** كما ذهب إليه رشيد يحياوي.

ولكل اتجاه من هذه الاتجاهات أسباب دعَتهُ لإطلاق مصطلحه-كما بيَّنَّاه في مقالنا-، إما أنه قصد إلى المفهوم الأصلي كما فعل طه عبد الرحمن ومن تابعه، أو إلى وظيفته أو ما أراده منه أو له؛ كما فعله محمد يونس ومن تابعه، أو إلى استثمار موضوعات البحث التداوليِّ كما فعله رشيد يحياوي.

مراجع الدراسة

1) -ينظر: جان فرانسوا دورتيي، تأليف جماعي، مجلة العلوم الإنسانية، ترجمة: إبراهيم صحراوي، فلسفات عصرنا، الفلسفة الغربية المعاصرة: تياراتها، مذاهبها، أعلامها، قضاياها، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1430هـ-2009م، ص367.

-(2 Jean–François Dortier et Nicolas Journet. Les clés du LANGAGE ; Nature,Origine,Apprentissage .La petite Bibliothèque de sciences Humaines .Sciences Humaines Edition,2015 .p10

3) -محمد خطابي، المادة المصطلحية الحديثة في المعجم المفصل في الأدب لمحمد التونجي، مجلة اللسان العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، العدد السادس والأربعون، الرباط، شعبان1419ه، ديسمبر 1998م، ص98.نقلا عن:

SAGER, Juan C .A Practical Course in Terminology .Processing John Benjamin's Publishing Company Amsterdam/Philadelphia 1990

4) -ينظر: المرجع نفسه، ص99.

5) -ينظر: المرجع نفسه، ص.100

6) -جورج يول، التداولية، ترجمة: الدكتور قصي العتّابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، الطبعة الأولى، 1431ه-2010م، ص19. بتصرف يسير، و(أو) هنا للتخيير الذي يُظهر اتجاهات البحث المتكاملة لا المتفارقة، استعنّا بها هنا لجمع ما تفرّق من تعريفات هذا المصطلح.

7) -ينظر: طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء-المغرب، (د. ت .ط)، (د.ت.ن)، ص.244

8) -طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، (ط1)،1424ه-2003م، ص75، 76، 77.

9) -ينظر: المرجع نفسه، ص77.

10) -ينظر: المرجع نفسه، ص78، 77.

11) -ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى،1405ه-1985م، ص8، 9.

12) -لأن التجديد كما نفهمه مشروع نظري كامل لتغيير كيفية نظرنا للموضوع المدروس، أما استنساخ نموذج واستبدال الأمثلة من غير نظرة أصيلة فهي محاولة إسقاط اختبارية لمشروع جاهز هو مشروع النحو الوظيفي لسيمون ديك، على أني لا أضرب عمل المتوكل -المتّسم بالجدة كما وصفته-من أساسه بقدر ما كنت أطمح أن أجد فيه بديلا نظريا وعمليا لا بديلا أكثر تعقيدا.

ومع ذلك تعتبر مثل هذه المنجزات النظرية طريقا نحو استئناف تجديد العلوم اللسانية العربية، وهو الأمر الذي تطمح إليه اللسانيات العربية المعاصرة.

13) -ينظر: المرجع نفسه، ص.10

14) -مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص.17

Catherine Kerbrat–Orecchéoni- (15

16) -ينظر: المرجع السابق، ص16.

17) -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

18) -ينظر: المرجع نفسه، ص.47

19) -ينظر: محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي؛ دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الإسلامي، طرابلس، الجماهيرية العظمى، الطبعة الأولى، 2006م، ص8.

20) -عبد الرحمن الحاج صالح، سلسلة علوم اللسان عند العرب 3، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، (د. ت. ط)، (د.ت.ن)، ص211.

21) -ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها، الهامش 2.

22) -ينظر: العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المملكة المغربية، ط1، 2013م، ص18.

23) -ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

24) -العمري، البلاغة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 2005م، ص6.

25) -ينظر: المرجع نفسه، ص 6 و15. هذا التوجيه من العمري يُؤَصِّله بالعودة إلى أرسطو في التفريق بين الشعرية والخطابية؛ إذ الشعر كذب يحتمل الصدق، والخطابة صدق يحتمل الكذب، وبهذا المعنى يكون الشعر خطابا تخييليا يُوهم المخاطَب إذ ينطلق من اللاوجود الذي يحتمل الوجود، أما الخطابة فهي خطاب تداولي "حجاجي" يقنع المخاطَب إذ ينطلق من الوجود الذي يحتمل اللاوجود؛ فالشعر ينقل المخاطَب إلى عالمه اللاموجود بواسطة الصورة (المبنية من الوجود)، والخطيب ينقل المخاطَب من عالمه الموجود بواسطة الحجاج إلى اللاوجود الذي يريد تحقيقه في الواقع. ينظر: المرجع نفسه، ص 15-.21

26) -رشيد يحياوي، التبالغ والتبالغية، نحو نظرية تواصلية في التراث، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، 1435 ه-2014م، ص.11

27) -ينظر: المرجع نفسه، ص10.

28) -ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.